تأثير مناسك الحج على سلوكيّات وأخلاق الحاج (2)

2024-05-24

الحمدُ للهِ فَاطِرِ الأَرْضِ والسَّمَاوَاتِ، المتفَضِّلِ بِالْعَطَايَا وَالْهِبَاتِ، المُتَفَرِّدِ بِالْكَمَالِ فِي الْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، فَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ الْحَجَّ فِي أَشْهُرٍ مَعْلُومَاتٍ، وَجَمَعَهُمْ عَلَى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فِي عَرَفَاتٍ، يَخْتَلِفُونَ فِي الْأَعْرَاقِ وَالْأَشْكَالِ وَاللُّغَاتِ، أَقْبَلُوا عَلى خَالِقِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ مُذْعِنِينَ، وَبِالْحَجِّ مُهَلِّلِينَ، وَلِنِدَاءِ رَبِّهِم مُلَبِّيِينَ، ((إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)). فسبحانه من إله شَرَعَ الْمَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ، وَأَمَرَ بِالْحَجِّ إِلَى بَيْتِهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِ، وَمِنْ مَوَاطِنِ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ وَذِكْرِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ جعل كلمة التوحيد لعباده حِرْزاً وحِصْناً، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأَمْناً، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصيناً ومَنّاً، وجعل زيارته والطواف به حِجاباً بين العبد وبين العذاب ومِجَنّاً. وأشهدُ أنّ سيِّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه. وصفيّه من خلقه وخليله. أوضحَ الأحكام للمسلمين. وأقامَ الأعلام للسالكين، وقال: ((مَن يُرِد الله به خيرًا يُفقِّهه في الدين))،

رسول كريم هاشميّ ممجَّدُ * لقد خصّه المولى بأرفع رتبةِ

حريص علينا ساعي في نجاتنا * رؤوف بنا قد حاز أعظم رحمةِ

ألا يا رسول الله إنِّيَ عاشق * وحقِّك فاطْفِ نار شوقي ولوعتِي

ألا يا رسول الله إنّك سيّدٌ * جواد فجُدْ للعبد منك برؤيةِ

ألا يا رسول الله عبدك شائق * إليك فجُدْ عزمًا عليه بزَوْرةِ

لئن عظمت منّي الذنوب فأنت لي * شفيع وحاشا أن أُرَدَّ بخيبةِ

عليك صلاة الله ثم سلامه * بلا منتهى والآل ثمّ الصّحابةِ

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد. جوهرة الكمال. وسيِّد الرجال. وعلى آله عقود الجواهر النفيسة واللآل. وصحابته بحور الكرم والفضل والنوّال. صلاة تمنّ بها علينا بحجّ بيتك الملحوظ بعين التعظيم والإجلال. وتجعلنا بها ممّن وقف بعرفة وحلق ولبّى وطاف وسعى وزار قبر نبيّك قبل حلول الآجال. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. **أمّا بعد:** فيا أيّها المسلمون. إنّ الحديث عن بقية الآثار السلوكية التي تتركها عبادة الحج، في الحقيقة حديث عن الأخلاق بمعناها الواسع. والمقصود الإشارة إلى أنّ الأخلاق والسلوك الحَسن له أهميّة عظيمة وشأن كبير في حياة المسلم، بل الأخلاق لها شأنها عند جميع الأُمُم. مُسلِمها وكافرها، وحسبنا أن نعلم أنّ من أعظم الطُّرُق التي مَلَك بها نبيّنا صلى الله عليه وسلم قلوب الناس في دعوته هي سلوكه الحَسَن، وتعامله الفذّ، وخُلُقه العظيم. الذي امتدحه الله سبحانه وتعالى به في قوله في سورة القلم: ((وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ)). وما أجمل قول الشاعر الذي نبّه إلى عظمة شأن الأخلاق حيث يقول:

أيها الطالب فخراً بالنسبْ * إنما الناسُ لأُمٍّ ولأبْ!

هل تراهم خُلقوا من فضةٍ؟ * أو حديدٍ أو نحاسٍ أو ذَهبْ؟

أو تَرى فضلهموا في خلْقهمْ * هل سوى لحمٍ وعظمٍ وعصبْ؟

إنّما الفضلُ بعقلٍ راجحٍ * وبأخلاقٍ كِرامٍ وأدبْ!

ذاك مَن فاخرَ في الناس به * فاق مَن فاخرَ منهم وغَلَبْ!

فتبيّن ممّا سبق أنّ الحديث عن الحج وآثاره السلوكية حديث مهمّ، لارتباطه بأمرٍ عظيم ألا وهو حُسن الخُلُق، وسلامة السلوك. أيّها المسلمون. كانت الخطبة الماضية استعراضاً لجملة من المواقف التي يمرّ بها الحاج، ولها آثار على النفس، وسلوكيات الحاج. وفي هذه الخطبة إن شاء الله تعالى نستكمل ما بقي منها. فالموقف السادس: في الحج، لا تكاد

تخطئ عين الحاج مريضاً، أو محتاجاً، أو معاقاً، أو مفترشاً الأرض إلى آخِر تلك الصُّوَر المتكرِّرة، والتي تبعث في نفسه شعوراً بأمور، ينبغي أن تظهر آثارها على سلوكه، ومن ذلك: أن يشكر الله تعالى بلسانه وجوارحه، على أن عافاه ممّا ابتلى به هؤلاء الناس. ومن الآثار أن يتذكّر المسلم برؤيته لهذه المناظر تفاوت الناس يوم القيامة!. فها هم في الدنيا منهم الصحيح القوي، ومنهم المريض الضعيف، ومنهم مَن هو بين ذلك، وهم يوم القيامة سيتفاوتون على قدر أعمالهم، فمنهم من هو في أعلى الدرجات، ومنهم من هو في أدناها. وثمّة أثر سلوكي آخَر يدفعك إليه نظرك إلى هذه المناظر، ألا وهو البذلُ والإنفاقُ، وسخاوةُ النفس لهؤلاء المحتاجين وأمثالهم، فتعطف على الفقراء، وتُحسن إلى المساكين، وتبذل للمنقطعين. أيّها المسلمون. الموقف السابع: يلمس المتتبِّع لحَجّة النبي صلى الله عليه وسلم مخالفته للمشركين في شعائرهم التي كانوا عليها في الجاهلية، ومن هذه الشعائر التي خالف النبي صلى الله عليه وسلم فيها أهل الجاهلية: مخالفته صلى الله عليه وسلم لهم في التلبية كما سبق أن أشرنا إليها. ومن مخالفته صلى الله عليه وسلم لهم في الإعتمار في أشهر الحج، في الوقت الذي كان أهل الجاهلية يعتقدون أنّ العمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور في الأرض، كما ثبت ذلك في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. ومن مخالفته صلى الله عليه وسلم لهم أنّ قريشا كانت لا تقف بعرفة كما يقف سائر الناس، بحُجّة أنهم أهل الحرم !! فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فوقف بعرفة حتى غربت الشمس ثم دَفَع، كما في الصحيحين من حديث عائشة، وجُبَيْر بن مُطعِم رضي الله عنهما. ومن مخالفته صلى الله عليه وسلم لهم أنّ أهل الجاهلية كانوا يتأخَّرون في الدفع من مزدلفة حتى تشرق الشمس. ويقولون أشرق ثَبِير كَيْما نُغيِّر، وثبير جبل معروف على يسار الذاهب إلى مِنًى. وهو أعظم جبال مكة. والمعنى أيْ لتطلع عليك الشمس يا جبل حتى ننفر، فخالفهم النبي صلى الله عليه وسلم فكان يفيض من مزدلفة قبل شروق

الشمس. أيّها المسلمون. والآثار السلوكية التي نستفيدها من هذه المخالفات الصريحة من النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الشرك كثيرة من أهمّها: حِرْص الإسلام على تميّز أتباعه في كل شيء في عباداتهم وأعيادهم ولباسهم وكلامهم، وغير ذلك، وخاصة في باب العبادات، بل إنه سَدَّ كل باب يُفضي إلى التّشبّه بهم. وحرّم على المسلمين ذلك، كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود وأحمد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَن تَشبَّهَ بقومٍ فَهوَ منْهم)). ومن الآثار السلوكية المسستفادة من هذه المخالفة كذلك: تأكيد الأمر العظيم، والأصل الأصيل، الذي هو أحد الأصول التي قام عليها هذا الدين، ألا وهو البراءة من المشركين في شعائرهم وأعيادهم وأخلاقهم ولباسهم وغير ذلك مما تميّزوا به، وهذه البراءة تقتضي بُغضهم وعداوتهم، وبُغض ما هم عليه من كُفْر وشِرْك. والحذر من التّشبّه بهم في أيِّ شيء من خصائصهم، وليس هذا أمرًا غريبًا. بل هو مِلّة سيّدنا إبراهيم صلى الله عليه وسلم. الذي أعلنه صراحة في وجوه الكفار، كما قال الله عز وجل في سورة الممتحنة: ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)). فهو يُعلن عليه الصلاة والسلام أنّ العداوة والبغضاء لا أمد لها سوى الإيمان بالله وحده عز وجل. وأن يكونوا حنفاء لله غير مشركين به، وقد سار على هذه الطريق إبنه الخليل الثاني نبيّنا سيّدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. فبعث سيّدنا أبا بكر رضي الله عنه عام تسعة من الهجرة ليُعلن البراءة من المشركين، وألاّ يحج بعد هذا العام مشرك. كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. أيّها المسلمون. ومع وضوح مكانة هذا الأصل، وكونه من المسلَّمات في الشرع، إلا أنّنا وللأسف لازال بعض المسلمين أو ممّن ينتسب إلى الإسلام مَن يخرق هذا الأصل العظيم. فمنم مَن يُهوِّن مِن شأن عداوة الكفار عموما أو من عداوة

اليهود والنصارى على وجه الخصوص، حتى ظنّ بعضهم أنه يُمكن أن نتقارَب مع أهل الكتب السماوية المنسوخة بدين الإسلام، أو أنه يمكن أن نلتقي تحت مظلّة الإنسانية. ومنهم من يظن أنّ المخرج لهذا التخلّف الذي تعيشه أمّة الإسلام هو السَّيْر في ركاب الغرب والشرق وأَخْذ جميع ما عندهم، من غير تمييز بين النافع والضار. ومن مظاهر خَرْق هذا الأصل: ما يراه كل مسلم من التّشبّه بالكفار في لباسهم أو سلوكهم، ومن أَوْضح الصُّوَر ما نراه في أبنائنا وبناتنا من قصّات الشعر الغريبة، ولُبْس السراول الممزَّقة والكاشفة للعورة، والتي زاد سعرها. مع هذا البث الفضائي المحموم، إلى غير ذلك من المظاهر التي تدلّ على وجوب تكثيف الحديث عن هذا الأصل العظيم، وهو مخالفة الكفار. خاصة في هذا الزمان الذي أصبح الحديث عن المسلَّمات من الواجبات. والله المستعان. أيّها المسلمون. الموقف الثامن: في يوم عرفة مواقف عظيمة، لها أثرها على السلوك وتزكية النفس، ومن ذلك: أنّ هذا الموقف العظيم يجعل نفس المؤمن تتأرجح بين منزلتَيْ الخوف والرجاء! فالعبد يخاف حينما يتذكّر ذنوبا بينه وبين ربه اقتحمها عن عمد وإصرار! وكما أنّ العبد يخاف في ذلك الموقف، فهو أيضا يرجو ربه حينما يتذكّر سعة رحمة الله عز وجل وعظيم مغفرته، نَعَم يرجو ربه الذي قال في كتابه في سورة الزمر: ((قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))، والذي قال أيضا في سورة الأعراف: ((وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ)). نعم. يرجو رحمة أرحم الراحمين حينما يتذكّر قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم عن أُمّ المؤمنين السيّدة عائشة رضي الله عنها: ((ما من يومٍ أكثرُ من أن يَعتِقَ اللهُ فيه عبيدًا من النَّارِ من يومِ عرفةَ، وإنه لَيدنو، ثم يباهي بهم الملائكةَ فيقول: ما أراد هؤلاءِ؟ اِشهَدوا ملائكتي أني قد غفرتُ لهم)). فيا مَن يحب أن يباهي به ربه ملائكته، إعمل على تحقيق هذه المباهاة بالتزام أَمْر ربك، وتَرْك نواهيه! والمقصود أن يجمع العبد

بين هاتَيْن العبادتَيْن: الخوف والرجاء. وليغلِّب إحداهما على الأخرى حسْب الشعور الذي ينتابه في تلك اللحظات المَهيبة. أيّها المسلمون. ومن المعاني العظيمة التي تتجلّى في موقف عرفة: ذلك المشهد العظيم الذي يُذكِّر بالموقف الأكبر يوم القيامة، يوم يجمع الله الأوّلين والآخِرين في صعيد واحد. فيقفون خمسين ألف سنة، وهم في العرق على قَدْر أعمالهم. كما ثبت في الصحيح! ، ويتذكّر الإنسان بذلك انصراف الناس من الموقف الأكبر: فريقٌ في الجنّة، وفريقٌ في السعير! ويتذكر بذلك أيضاً حينما ينصرف الناس من حجّهم إلى بلدانهم: أناسٌ مقبولون قد غُفرت ذنوبهم، وآخَرون يعودون إلى أوطانهم وليس لهم من حجّهم إلا التعب والنصب. نسأل الله العافية والسلامة!! فيا لها من حسرة عظيمة إن لم يُقْبَل من العبد عملُه. أيّها المسلمون. فَاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ، وَاحْرِصُوا عَلَى تَعْظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ، وَتَخَلَّقُوا بِأَخْلاقِ الحَجِّ الْحَقَّةِ، وَكُونُوا أَشَدَّ احْتِرَاسًا مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَاجْعَلُوا مِنْ مَنَاسِكِ الحَجِّ دَلِيلاً عَلَى مَبَادِئِكُمْ وَأَخْلاقِكُمْ، وَاقْتَفُوا فِي ذَلِكَ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم، تُفْلِحُوا فِي دُنْيَاكُمْ، وَتَسْعَدُوا فِي آخِرَتِكُمْ. ((وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)). اللهم فقّهنا في الدين، وعلّمنا ما ينفعنا في الدنيا والآخرة، واجعلنا من عبادك الفائزين، اللهم اجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، اللهم إنّا نسألك علماً نافعاً. وقلباً خاشعاً. ولساناً ذاكراً. وعملاً صالحاً متقبَّلاً غير مردود، اللهم طهّر قلوبنا من النفاق. وأعمالنا من الرياء. وألسنتنا من الكذب. وأعيننا من الخيانة. إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. اللهم احفظ الْحُجّاج والمعتَمِرين في بَرّك وبحرك وجوّك، واجعلهم متّبعين لشرْعك، مقتدين بنبيّك. صلى الله عليه وسلم. ووفّقهم لإتمام نُسُكهم، وتقبّل منهم، وأعِدهم إلى ديارهم سالمين غانمين، يا حيّ يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام. بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين يا ربّ العالمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. اهـ